قافلة الزيت

ربيع الاول ١٣٨٨ مايو - يونيه ١٩٦٨

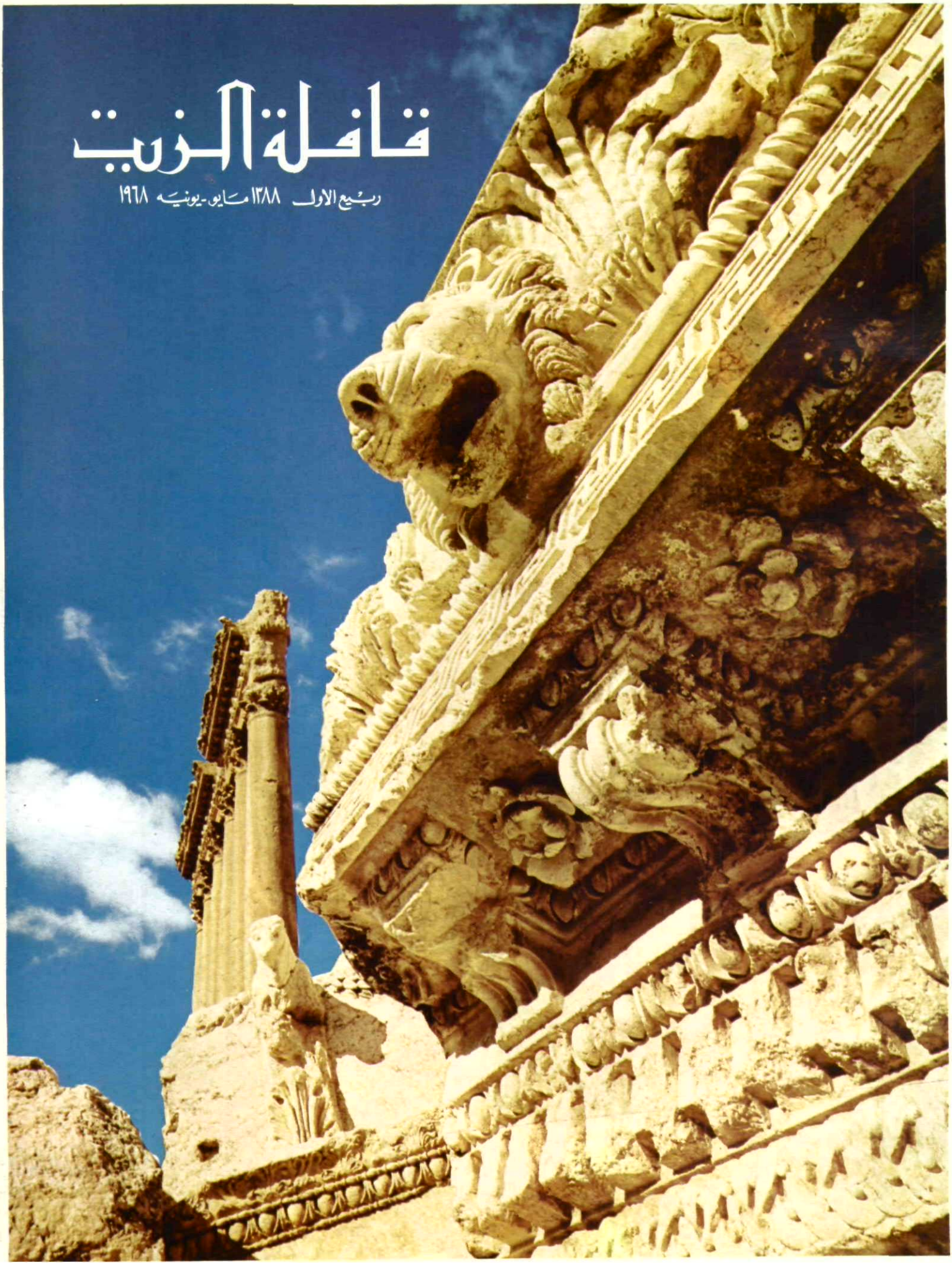

بعلبك

مدينة الشمس

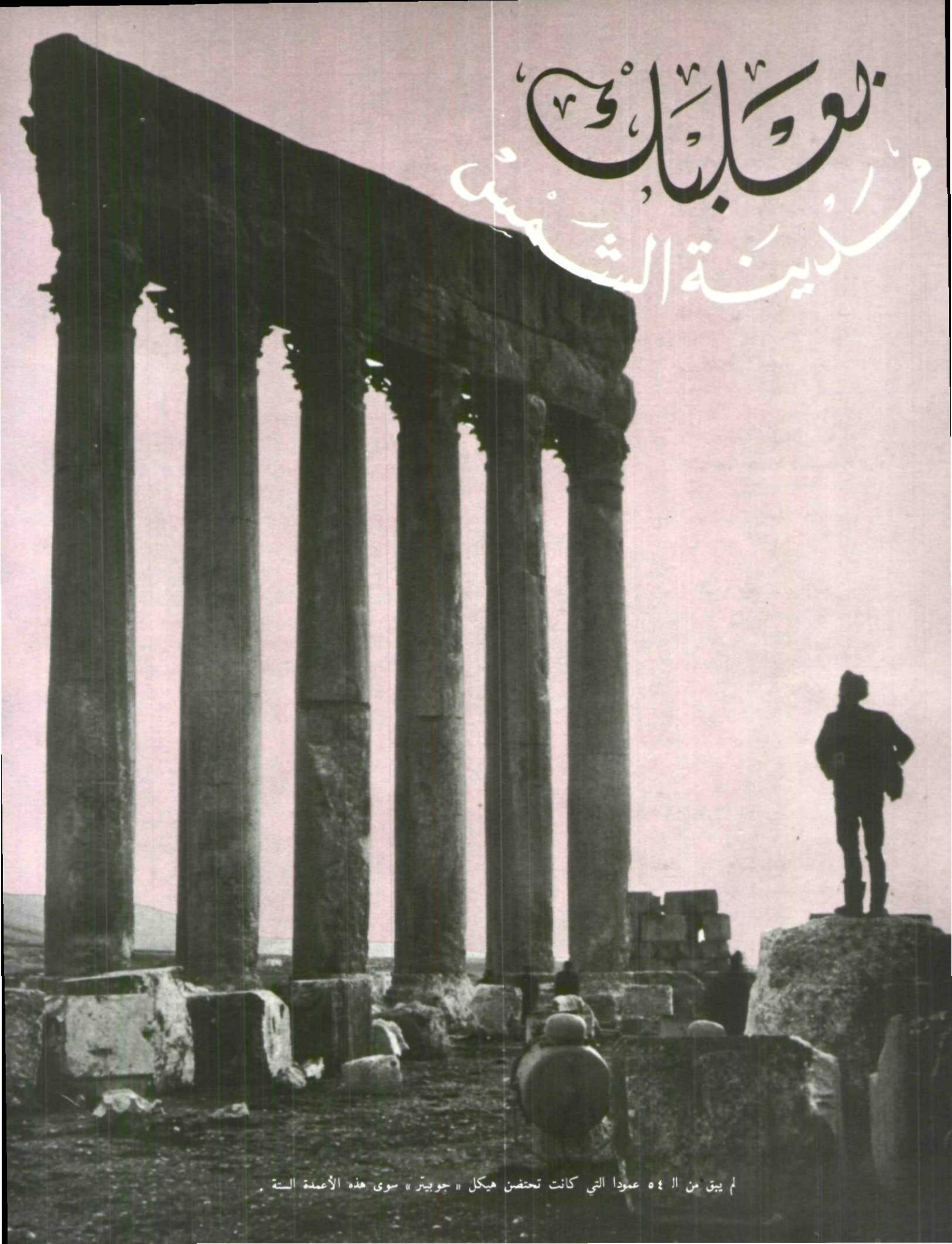

لم يبق من الـ ٥٤ عمودا التي كانت تحتضن هيكل « جوبيتر » سوى هذه الأعمدة الستة .

أيه أن لبعلبك سلام ... بعد طول النوى وبعد المزار
ووشيت العفاء من عرصاتك ... حقويات أوالهل بالفخار
خرب حلت البرية فيها ... فتنة الساحرين والنظار

خليل مطران

تحت كل حجر من حجارتها الضخمة ، وعلى صفحة كل من أعمدتها الثابتة الراسخة ، وفوق كل مدرج من مدرجاتها الرحبة تكمن الروعة ، ويتجلى الجمال .. تلك هي قلعة بعلبك التي تعود الى عهد موغل في القدم ، والتي حيك حـــول مولدها العديد من الأخبار والأساطير . قيل فيها : « انها أقدم بناء في العالم .. شيدها قاين بن آدم عام ١٣٣ من بدء التكوين ، في احدى سورات غضبه ، وأطلق عليها اسم ولده اخنوخ ، ثم أسكن فيها جماعة من العمالقة ، تعسفوا وظلموا ، فكان عقابهم الطوفان .. »

وربما أثرت هذه الأسطورة أو غيرها على المؤرخ العربي زكريا القزويني ، فقال لدى ذكر بعلبك : « يستطيع المرء فيها رؤية قلعة سليمان الحكيم ، التي أورثها من بعده ابراهيم ، كما يستطيع مشاهدة هيكل (اليزا) . » ومهما كانت الأساطير أو القصص التي تحاك عن المدينة ، فهي تضفي على هذه المعالم الأثرية الرائعة المزيد من الغموض والعراقة ، وتحدو بالسائح الى زيارتها ، والوقوف على ما تبقى من معالمها .

تسمية بعلبك

يعتقد علماء الآثار ان أصل تسمية مدينة بعلبك يعود الى عهد الفينيقيين . وذلك لأن كلمة « بعل » تعني بالفينيقية « الشمس » ، وكلمة « بك » تعني « مدينة » ، وهكذا يكون

تبدو من خلال أسوار قلعة بعلبك مباني المدينة الحديثة ، وقمم الجبال المكللة بالثلوج .

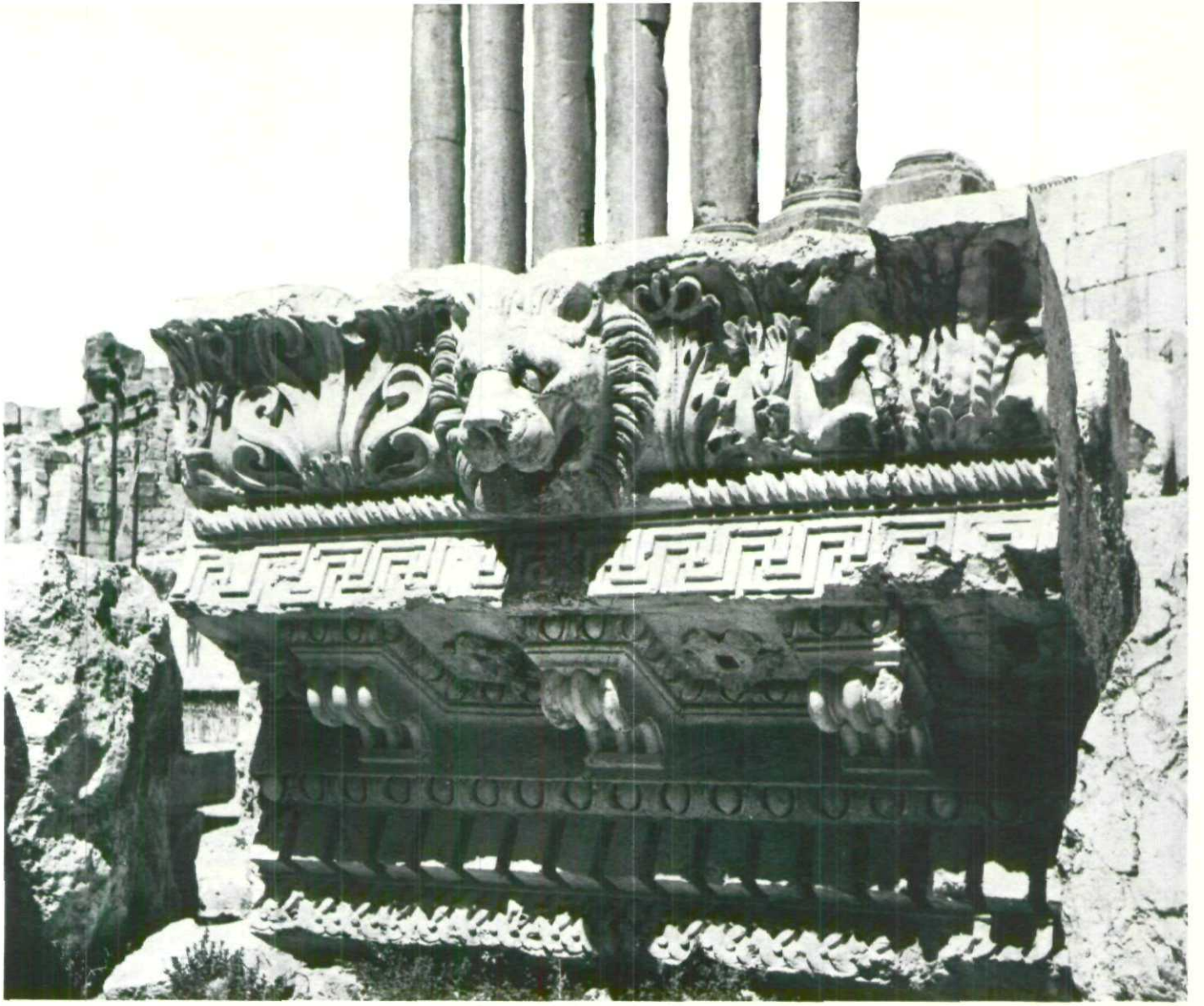

الآثار القليلة المتبقية من هيكل « جوبيتر » تعكس صورة واضحة عن مهارة الرومان في فن النحت والبناء .

اللقب الغالب على بعلبك « مدينة الشمس » ما هو الا ترجمة حرفية لتسميتها الفينيقية . ولعل ما يزيد في صحة هذا القول اطلاق الرومان عليها اسم « هليو بوليس » الذي يعني أيضا مدينة الشمس ، لا سيما وان صورا عديدة للشمس تظهر محفورة على بعض الهياكل .

بعلبك الأمس

اذا عدنا الى التاريخ وقلبنا صفحاته بحثا عن بعلبك . وجدنا أن أول فاتح وطئت قدماه أرضها هو اسكندر المقدوني أثناء مطاردته « داريوس » ملك الفرس . وبعد وفاتـــه استولى عليها البطالسة ، وجعلوا منها مركزا اداريا . وعندما احتل الرومان لبنان وسوريا حوالي عام ٦٣ قبل الميلاد ، واستولوا على بعلبك ، أحاطوها بكثير من الرعاية والعناية ، فبنوا فيها الهياكل والمعابد والمسارح بشكل أكثر اتقانا من آثارهم العمرانية في روما نفسها .

وفي عهد الامبراطور « أوغسطس » ، أطلق على بعلبك اسم « هليو بوليس » (مدينة الشمس) بعد أن أحالها الى مستعمرة رومانية . وعندما اعتنق الامبراطور قسطنطين المسيحية ، أنشأ في قلب هيكل الشمس كتدرائية ، ظلت قائمة حتى جاء « جوليان » وأمر بهدمها . وفي عام ٦٣٤م فتحها العرب فشيدوا فيها مسجدا كبيرا ، ومدرسة محاذية له . ومنذ ذلك الحين تحولت هياكل بعلبك الى قلعة عظيمة .

ان معظم معالم بعلبك لا تزال آثارها قائمة في شموخ رغم ما شهدته من حرائق ، وزلازل ، وفيضانا ت ، وكوارث .. وكأنها تتحدى عوامل الحدثان . وهذه الآثار هي التي أسبغت على بعلبك شهرتها الحالية ، وجعلتها محط الأنظار ومقصد السواح والزوار . وأهم معالمها الباقية هي : القلعة ، وهيكل « جوبيتر » ، وهيكل « باخوس » ، وهيكل « فينوس » ، والآثار العربية .

القلعة

تقع القلعة في الجزء الغربي من المدينة ، وهي عبارة عن أعمدة مستطيلة . طولها حوالي خمسين مترا ، وعرضها حوالي احد عشر مترا ، يليها فناء شبه مربع كان مسكنا لكهنة «جوبيتر» ، ففناء أكبر ، يبلغ طوله ١١٧ مترا ، وعرضه ١١٢ مترا ، يعرف باسم « هيكل الذبيحة » ،

أقيمت في وسطه الكتدرائية ، التي سبق ذكرها ، والتي هدمها « جوليان » فيما بعد . ويدخل الزائر اليها اليوم من باب كان العرب قد أغلقوه في العهود الغابرة زيادة في التحصين ، كما أنشأوا حوله بعض المباني والمنشآت الدفاعية .

هيكل « جوبيتر »

بقي هذا الهيكل تحت الانشاء من عام ١٠ قبل الميلاد حتى عام ٢٤٩ ميلادية . وقد شيد على قاعدة ضخمة تعلو المباني المجاورة بنحو سبعة أمتار ونصف المتر ، وتشرف على البساتين القريبة من علو يبلغ ١٣ مترا . ويشغل المعبد الأكبر من الهيكل رقعة مستطيلة من الأرض يبلغ طولها نحو ٨٨ مترا ، وعرضها ٤٧ مترا . ويحيط بالمعبد باب كبير قائم على ٥٤ عمودا ، كل عمود منها مكون من ثلاثة أحجار كلسية تربط أطرافها ببعضها البعض نواة من الحديد أو البرونز ، ويبلغ ارتفاع هذه الأعمدة من القاعدة الى القمة حوالي ٢٠ مترا ، وقطرها ٢,٢٠ من المتر ، وتعلوها قناطر حجرية تزدان بنقوش وزخارف تمثل ثيرانا وأسودا . غير أن معظم هذه الأعمدة قد تهدم بفعل العوامل الطبيعية والغزوات البشرية التي كانت تغير عليها طمعا في ثرواتها المعدنية ، ولم يبق منها سوى ستة أعمدة . أما الدرج المؤدي الى هيكل « جوبيتر » ، فيبلغ عرضه حوالي ٤٠ مترا ، وهو مبني على ثلاث مراحل مختلفة . ويحيط بثلاث جهات من الهيكل دكات مبنية من حجارة ضخمة ، منها ثلاثة يزن كل منها حوالي ٨٠٠ طن . فاذا ما تصورنا انه لم يكن لدى البناة الأوائل سوى معدات يدوية بسيطة ، استطعنا أن ندرك مدى الجهود الجبارة التي بذلت في نقل الحجارة والبناء .

هيكل « باخوس »

لعل أكثر ما يعبر عن روعة الفن المعماري وجمال التنسيق الهندسي في قلعة بعلبك عامة ، وفي هيكل « باخوس » خاصة ، تعليق السير « مور تيمر هويلر » أحد مشاهير علماء الآثار لدى زيارته لبعلبك ، حيث قال : « ان تيجان الأعمدة هي التي أعطت فن العمارة الروماني عظمته . فالهيكل الصغير « هيكل باخوس » ، كما كان يدعى في بعلبك ، يفوق « البنثيون » في روما ضخامة وعظمة ، وذلك لأنه ، ككل

معظم المباني التي كانت في بعلبك أمست ركاما من الحجارة يبكي عظمتها الغابرة

يعتبر هيكل « باخوس » من أكثر الآثار الباقية تكاملا في قلعة بعلبك ، اذ لا يزال ٢١ عامودا من عواميده واقفا متماسكا .

أجزاء قلعة بعلبك ، لا يدين بشيء مـــن صموده الى الاسمنت . وقلعة بعلبك ، علاوة على ذلك ، تقوم على أكبر قطع من الحجارة في العالم ، وبعض أعمدتها تفضل غيرها من الآثار العريقة علوا وارتفاعا . »

ولا يزال هيكل « باخوس » محتفظا بمعظم صفاته ومعالمه . ويرقى اليه بدرج مكون من ٣٣ درجة يفضي الى المدخل الرئيسي الذي يعتبر من أعظم المداخل الأثرية وأفخمها ، اذ يبلغ علوه ثلاثة عشر مترا ، وعرضه سبعة أمتار ونصف المتر . وقد نحت اطار هذا المدخل نحتا فنيا رائعا ينطق بالروعة والجمال . ففيه تشاهد سنابل القمح وفروع نباتات مختلفة ، كالعسلج والزيتون. ويشغل الهيكل رقعة طولها ٣٣ مترا وعرضها عشرون مترا ، وسقفه مزخرف برسوم ونقوش رومانية ، من ضمنها رسم « لباخوس » الذي يحمل الهيكل اسمه . وتحيط بالهيكل شرفة قائمة على ٥٠ عمودا علوها من القاعدة حتى القمة ١٩ مترا .

هيكل « فينوس »

على مسافة ٢٠٠ متر من القلعة (الاكربول) يقوم هيكل « فينوس الصغير » ، وهو يختلف عن بقية هياكل بعلبك بأنه مستدير . وقد حول هذا الهيكل في عهد الامبراطور « قسطنطين » الى معبد . ثم لما تولى الامبراطور « ثودوسيوس » الحكم ، أمر بهدم معابد بعلبك الوثنية وغيرها عبر الامبراطورية الرومانية بأسرها .

الجامع الكبير والآثار العربية

وبعد استيلاء العرب المسلمين على بعلبك استخدموها كقلعة حربية ، فبنوا فيها الأبراج ذات الفتحات اللولبية ، وأنشأوا في المواقع القليلة التحصين منها المتاريس والأسوار والكواة ، مستخدمين في ذلك الحجارة الضخمة . وقد اشتهرت أعمالهم هذه بالتناسق والدقة الفنية . كما حفروا حول أسوار القلعة خنادق عميقة ، تجعل من بعلبك حصنا منيعا يصعب اقتحامه . كذلك بنوا داخل أسوارها جوامع ، وبيوتا ، وحمامات ، وأفرانا ، ومدارس ، واسطبلات ، وحفروا آبارا عميقة للماء .

وظل العرب يقطنون قلعة بعلبك حتى منتصف القرن الثامن عشر عندما تعرضت لزلزال عنيف قوض الكثير من منشآتها ومبانيها ، فهجرها السكان وظلت مهجورة منذ ذلك الحين . ويعتقد علماء الآثار أن العرب هم أول من استخدم هياكل بعلبك كقلعة حربية . على أن هنالك فئة تخالف هذا الرأي وترى أن البيزنطيين خلال فترة استيلائهم على بعلبك بدأوا بتحويلها الى قلعة . أما الحصون التي ما زالت قائمة في هياكل بعلبك ، فتعود الى عهد أحدث من العهد البيزنطي . وتؤكد صحة ذلك الكتابات والنقوش التي تحملها والتي تدل على انها شيدت في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ومن خلفه في الحكم .

والمبنى الرئيسي الذي خلفه العرب داخل هياكل بعلبك هو الحصن القائم على مقربة من المدرج المؤدي الى هيكل « باخوس ». فقد كان مكونا في الأساس من ثلاثة أدوار ، بقي منها حتى الآن دوران.

.. تدخل الحصن عبر بوابة مخروطية الشكل ، فتجد أمامك حائطا يحتوي في الجزء الشمالي

الناحية الجنوبية من هيكل « باخوس » .

انقاض أروقة وأقباء وجدران عفا عليها الزمن هي كل ما تبقى من حصون بعلبك .
تصوير : خليل أبو النصر

منه على باب يفضي الى الدور الأرضي . واذا تركت الباب الشمالي جانبا ، وصعدت درجا لا يزيد عرضه على متر واحد تقريبا ، أفضى بك الى الطابق الثاني ، فالثالث حيث المتاريس التي كان حماة القلعة يحاربون الأعداء منها ، ويرمونهم بمختلف أنواع القذائف . ويتألف الدور الأول من الحصن من ثلاث غرف ذات فتحات لولبية في الجدران ، ومن أربعة ممرات .

وفي شمالي المدخل الرئيسي يقع الباب المؤدي الى الدور الثاني المكون من أربع غرف ، يصل بينها ممران . وثلاث من هذه الغرف فقط ذات فتحات لولبية ، اما الرابعة ، وهي الواقعة الى يمين المدخل ، فصغيرة مصمتة ، ليس فيها أية فتحة ، ويعتقد انها كانت سجنا . اما الدور الثالث الذي كانت تحيط به المتاريس ، فقد تهدم نهائيا ولا يعرف شيء عن تكوينه الأساسي .

والأثر العربي الآخر الذي ما زالت بعض معالمه قائمة ، هو الجامع الكبير الواقع في الشمال الشرقي من هيكل « فينوس » ، والذي أصبح الآن مجموعة من الخرائب تحيط بها ثلاثة صفوف من الأعمدة ، يقال انها أخذت من أسوار الهياكل . ويعتقد بعض سكان المنطقة ان هذا الجامع كان في الأصل كنيسة ، ثم حوله العرب فيما بعد الى جامع . أما في العصور الوسطى فقد كانت القاعة الكبرى من الجامع تستعمل كمدرسة حيث كان الأساتذة والعلماء يدرسون القانون للطلاب الوافدين مـــن مختلف الأنحاء . وفي وسط القاعة الكبرى بركة مربعة الشكل ، تقوم على أربعة أعمدة من الرخام الثمين . أما في الركن الشمالي الجنوبي من القاعة فتوجد بقايا مئذنة ، كان الجزء الأدنى منهـــا مربع الشكل والأعلى مثمنا .

هذا وتحمل جدران الجامع الكثير من النقوش والكتابات العربية المنمقة .

بعلبك اليوم

والآن بعد ان زالت المكانة التي كانت تتمتع بها بعلبك ، وبعد أن ضعفت أهميتها كمركز تجاري وسط بين السواحل اللبنانية والسورية ، أصبحت اليوم قرية زراعية هادئة يعيش سكانها ، البالغ تعدادهم حوالي ٨٠٠٠ نسمة ، على نتاج مزارعهم من خضار وفاكهة ، وعلى ما يبيعونه من صناعات يدوية محلية للسواح والزائرين . على أن مديرية الآثار اللبنانية ، في سبيل اعادة مجد الفن المسرحي الذي عاشته بعلبك في العهد الروماني ، تعمد في صيف كل عام الى إقامة مهرجانات شعبية على المدرج الروماني الشهير لاجتذاب المزيد من السواح اليها ولاعادة النشاط التجاري الى أسواقها .

ان من يزور بعلبك في الصيف يستطيع أن يقضي نهارا ممتعا في زيارة الآثار التاريخية الرائعة ، وامسية شـــيقة في مشـــاهدة احدى حلقات تلك المهرجانات الشعبية حيث تردد جدران القلعة النغم والإيقاع ، وحيث تنبعث من خلف حجارة الهياكل وخرائبها الأنـــوار المختلفة الألوان والأشكال ، فتضفي على تلك الاحتفالات جوا شاعريا حالمـــا يزيدها روعة وبهجة وفتنة وجمالا .

عصام العماد